معارك "عام النفض"[1] من خلال الذاكرة المحلية

[2]عبدالكريم ساعة

موضوع هذا المقال يتمركز حول السؤال التالي : ماذا تحتفظ به الذاكرة المحلية بخصوص ما جرى من معارك بين سكان فجيج والقوات العسكرية الفرنسية خلال صيف 1903؟[3]

في البدء، لابد من تقديم بعض التوضيحات حول ما أقصد به هنا ب"الذاكرة المحلية"، ومحاولة تفسير لماذا الاهتمام بدراسة هذه الذاكرة. كما تجدر الإشارة أيضا إلى طبيعة المنهجية التي اتبعتها في هذه الدراسة.

الذاكرة المحلية وأهميتها في كتابة تاريخ الواحة

يمكن التمييز بصفة عامة بين صنفين من الذاكرة. هناك "الذاكرة الشفوية"، من جهة، وهناك "الذاكرة المكتوبة" أو "المدونة" أو "المادية"، من جهة أخرى. إن الصنف الأول هو الذي يحضى باهتمامي في هذا المقال. أما الصنف الثاني، والذي يتجسد في أشكال متنوعة ومختلفة من الوثائق والمخطوطات، والأدوات والأسلحة، والمآثر، وغيرها، فرغم أنه لا يقل أهمية عن الصنف الأول ورغم تكامله معه وارتباطه الوثيق به، فهو في حاجة إلى دراسة خاصة. فالمقصود هنا بالذاكرة المحلية، هي إذن تلك"الذاكرة الشفوية"، التي تتجسد في كل ما بقي عالقا في أذهان أهل فجيج، سواء في شكل حكايات، أو روايات، أو أساطير، أو أناشيد أو أغاني، أو أهازيج، أو أشعار، أو نكت، أو نوادر... تتعلق بالأحداث والمعارك التي جرت أثناء "عام النفض". وتجدر الإشارة هنا أن حدود هذه

---

1. إن عبارة "عام النفض"، هي العبارة الأكثر استعمالا لدى عامة أهل فجيج عند حديثهم عن ما يسمى في الأدبيات العربية ب"أحداث فجيج 1903 ". وكلمة النفض هنا ترمز للقنابل التي قذفت بها المدافع الفرنسية فجيج والذي بلغ عددها حسب المصادر الفرنسية نفسها 587 قذيفة. وهناك عبارة أخرى باللغة الأمازيغية يستعملها السكان في بعض الأحيان، وهي " النفض نتمزكيدة" (عام قصف المسجد).

2. أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية

3. يتعلق الأمر بمعركة 31 ماي 1903 التي خاضها الفجيجيون ضد القوات الفرنسية المرافقة للحاكم العام الفرنسي للجزائر، الجنرال جونار (JONNART) ، والتي دارت رحاها بفج تاغيت، جنوب قصر زناكة، وأيضا بمعارك 8 يونيو من السنة نفسها، والتي دارت خلال عملية القصف، واشتبك فيها المقاتلون الفجيجيون بالكوم في شمال "تاشرومت"، جنوب واحات بني داريت.

الذاكرة لا تقف عند الحدود الجيوسياسية لواحة فجيج وقصورها السبعة الحالية. بل لها امتدادات وجذور في المنطقة بأكملها، ولاسيما عند أهالي القصور المجاورة للواحة والقبائل الرحل التي أصبحت تنتمي للسيادة الجزائرية. ونظرا للصعوبات التي تطرحها دراسة هذه الذاكرة الجماعية في بعدها الجهوي، فإنني اقتصرت على البعد المحلي، وبالخصوص بقصر زناكة الذي كان مستهدفا بالدرجة الأولى والذي دارت فيه بالفعل مجمل أحداث عام النفض.

ولكن ما جدوى الاهتمام بالذاكرة الجماعية المحلية؟

إن الهدف الرئيسي هو صيانة هذه الذاكرة وذلك عن طريق تدوين كل ما تختزنه من معلومات ومعار يف حول معارك عام النفض. والهدف الثاني هو إعطائها المكانة التي تستحقها كمصدر أساسي في كتابة أو إعادة كتابة تاريخ هذه الواحة، وتاريخ ساكنتها الذي هو جزء لا يتجزأ عن التاريخ الوطني المغربي.

بالإضافة إلى هذا، فإنه من بين الملاحظات التي يجدر تسجيلها هنا حول ما كتب من أدبيات سواء الأجنبية منها أم العربية، بخصوص معارك عام النفض :

1. هناك ثلاثة مصادر رئيسية فقط، حسب معرفتي[4]، تناولت بتفصيل "أحداث فجيج 1903 ". هذه المصادر كلها فرنسية، اثنين منها على شكل مقالة، وهي :

FRANKLIN, Jaques-Hubert. 1903. "Les incidents de Figuig", *Questions Diplomatiques et Coloniales (Revue de Politique Extérieure*), 7ème année, n° 152, 15 juin, pp. 784-798 + croquis du sud oranais..

TERRIER, Auguste. 1903. "Les événements de Figuig", *Bulletin du Comité de l'Afrique Française*, 13ème année, n°6, juin, pp.179-183 + carte.

والثالث هو تقرير كتب في القيادة العسكرية ببني ونيف في 10 يونيو 1903، وبعث إلى الحاكم العام للجزائر جونار (JONNART)، وذلك في 12 يونيو 1903 :

A.M.G.P., (Archives du Ministère de la Guerre, Paris) 1 H, C. 1034.

2. معظم الكتابات الأجنبية والعربية التي تعرضت فيما بعد لموضوع هذه الأحداث[5]، لم تأتي بمادة تاريخية جديدة بشأنها، بل استندت على المصادر

---

4. أستند هنا على تقييمي الأولي لعمل بيبليوغرافي جردت فيه معظم ما كتب عن واحة فجيج وعن مسألة الحدود في هذه الجهة من المملكة. يضم هذا العمل قائمة 151 عنوان كتاب، و 221 عنوان مقال، و22 عنوان ندوة ومناظرة، و184 عنوان علب من أرشيف الوزارة الحربية بباريس، و 41 عنوان علب من أرشيف الوزارة الخارجية بباريس، و28 عنوان علب من أرشيف الخزانة الوطنية بباريس، اظافة لبعض كنانيش الخزانة الحسنية بالرباط.

5. يمكن الاقتصار هنا بذكر أهم هذه المراجع :

BERNARDABERARD, Victor, 1911. "La leçon de Figuig", *Revue de Paris*, t., III,

الثلاثة المذكورة، كما أنها لم تولي أي اهتمام للذاكرة الجماعية المحلية.
3. المرجع الوحيد الذي أخرج الذاكرة المحلية من صمتها المطبق، وهو كتاب الأستاذ أحمد مزيان[6]، بحيث أمدنا هذا الباحث بإحدى روايات سكان زناكة عما جرى في "عام النفض"، والمتمثلة في الرسالة التي بعثها أعيان جماعة هذا القصر للسلطان عبدالعزيز[7].

إنطلاقا من هذه الملاحظات، يمكن القول أنه أضحى مستعجلا وملحا ومجديا أن يحل الاهتمام، والإلمام، والصيانة محل التغييب والتهميش واللامبالاة التي طالما عانت منها هذه الذاكرة. ذلك ولاسيما أنها أصبحت تتلاشى وتنهار بمرور الزمن و برحيل حامليها وحماتها من شيوخ ونساء هذه الواحة. ولكن كيف يمكن استقراء هذه الذاكرة واستجلاء أغوارها؟

تقنية المقابلة الموجهة

لقد اعتمدت في مقاربتي لذاكرة أهل زناكة على ما يسمى في العلوم الاجتماعية بتقنية "المقابلة الفردية الموجهة". بحيث تم تهيئ ثلاثة عناصر أساسية قبل النزول إلى الميدان. العنصر الأول يتمثل في دليل المقابلة الذي يتضمن مجموعة من الأسئلة الكبرى حول أسباب المعارك، وأحداثها والأطراف المشاركين فيها وانعكاساتها. والعنصر الثاني هو قائمة المبحوثين الذين اخترناهم لاستجوابهم نظرا لكونهم معروفين في أوساط الفجيجيين بذاكرتهم الحية، ولغتهم السليمة وخطابهم المنظم، وهي كلها سمات ترفع من مردودية المقابلة. والعنصر الثالث هو مجموعة من الباحثين الشباب الذين تم تكوينهم وتدريبهم على استعمال تقنيات البحث السوسيولوجي، من أجل إجراء هذه

---

pp. 876-894 ; t. IV, pp. 201-224, 421-448, carte; BERNARD, Augustin. 1911. *Les confins algéro-marocains*. Paris : Larose. 420 p., 28 fig., et cartes, 84 photo ; DUNN, Ross. 1977. *Resistance in the desert*. 1872-1912. USA. : CROOM H.E.L.M., The Univ., of Wisconsin Press. 291 p.; JULIEN, Charles André. 1978. *Le Maroc face aux impérialismes*, 1456-1956. Paris : J. a. 549 p.48 p., dep. et carte ; PINON, René. 1912. *L'empire de la Méditerranée*. Paris : Perrin et Cie., 467 p.

6. فجيج مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال القرن التاسع عشر (1845-1903). مطبعة فجر السعادة، الرباط، 1988،- 592 صفحة. وينبغي أن نضيف إليه هنا الكتاب الذي صدر في الأسابيع الأخيرة للأستاذ الباحث برحاب عكاشة تحت عنوان فكيك باب المغرب، الذي يعرض فيه لأول مرة مجموعة من الوثائق المحلية والمخزنية، المتعلقة بقضايا الحدود بواحة فجيج، وجهتها.

7. أحمد مزيان، المرجع نفسه، ص. 472.

الدراسة الميدانية[8]. وأشير هنا أن الحلقات التكوينية التي حضرها هؤلاء الشباب كانت تندرج في إطار الأنشطة الثقافية التي تنظمها جمعية زوزفانة بمدينة الدار البيضاء، كما أنها تشكل خطوة أولى في طريق إنجاز مشروع أوسع يهدف لتدوين التراث الثقافي الشفوي العام لسكان واحة فجيج، التي تعمل جمعية زوزفانة كل ما في وسعها لإنجاحه.
لقد أنجز البحث خلال شهر أبريل 2003، حيث تم استجواب ثلاثين مبحوثا، ينتمون كلهم، رجالا ونساء، إلى قصر زناكة، وتتراوح أعمارهم مابين 65 و 100 عام. معظم الاستجوابات جرت باللغة الأملزيغية، مما أتاح حرية أكبر في الحديث، وسهولة في التعبير ومرونة في الصياغة... كما أنه عمدنا إلى استعمال آلة التسجيل في كافة الحالات، لضمان حفظ كل المعلومات.

نتائج الدراسة

تجدر الإشارة في البداية أن المبحوثين يستهلون كلهم حديثهم بالقول أنهم لا يتذكرون شيئا عن أحداث مر عنها قرن من الزمان، مما يعطي الانطباع أنه فات الأوان للبحث عن هذا ا الموضوع. غير أنه بمجرد ما يتم النبش في الذاكرة إلا وبدت وكأنها تنفض غبارها، وأخذت تسترجع ما في باطنها، وتفصح عن مخزونها.
الهدف هنا ليس هو عرض مجموع النتائج التي خلصت إليها هذه الدراسة، بل البعض منها، ولاسيما العناصر التي لا نجد لها أثرا في الأدبيات التي كتبت لحد الآن حول هذه الأحداث، والتي تتمثل في مجموعة من الأناشيد والأغاني، والروايات والأساطير، وبعض النوادر التي لا تخلو من دلالات سوسيوثقافية. والوقت لا يتسع هنا لتحليل مضامينها والتعليق عليها.

الأناشيد والأغاني
النص رقم 1

---

8 . . أخص بالذكر هنا الأخت نجاة ساعة التي أجرت جل المقابلات، والطالبة سميرة مقران، والزميل عبدالمجيد رابح.

قد[9] والمختار
حمادي المشوار
بلسانو يغزل ويودي
ابكي يا عني
على أمير السدات
بلعربي فين غايب
بكا بوراس وعيشا[10] طول الزمان
خل غير الصغار يبكي
محمد أحركاص كالطير الفرفار
راهون[11] في جنة الرضوان
محمد أحمد الشريف[12]
بلسانو يغزل ويودي
قال رواحو يا لسلام
الجهاد في سبيل الله
خرجوا الشايب والشباب
يتلاغو بحمد الله
خرجوا سداتي
كيف السباك الذهبية

من نظم الملقب بشير أشيخ

النص رقم 2

زناكة لبدا[13] شانعين
من كبيل الا ظاهرين
ادير مزية ألعدو

---

9. "قد" هو تصغير لاسم عبدالقادر. في إطار علاقات التواصل بين الأفراد، جرت العادة عند سكان فجيج على استعمال أسماء مصغرة مكان الأسماء الأصلية للأشخاص، وذلك علامة على التحبيب أو الوقار...
10. عيشا هو تصغير لعائشة.
11. كلمة "راهون" تحل هنا محل الكلمة العربية الدارجة التي تنطق في أماكن أخرى "راهم"، أي أنهم موجودون في الجنة.
12. أسماء الأشخاص المذكورين في هذا النشيد، هي أسماء أبطال شاركوا في المعارك والبعض منهم استشهد في الجهاد
13. كلمة لبدا تعني دائما.

والكافر أد ما يعيد
يا ربي مولانا
تكمل معنايا
منين نشوف الكافر
نسمع الجنود كاصرين
زناكة لبدا شانعين
الناظم مجهول

النص رقم 3
مين غادي بالكور[14]
يا لالة حدي الصور
جات البومبا[15]
ريبت السمعة
امشتشو[16] الا هروب
زناكة الا تروب

النص رقم 4
أشثر يا عوام أشثر يا عوام
البارود ما يقتل غير الا أوفى الآجال[17]

النص رقم5	**ترجمة النص 5**
أوتن أنخ الكوم نفرنسا	قذفنا كوم فرنسا
انياس يا سادتي	قيل يا سادتي
الرومي طاير	الرومي هائج
الباروض ابرم	القنابل طائرة
القرطاس اتزنزن	والرصاص يدوي
انياس أوتن أنخ	قيل لقد ظلمونا

14. المقصود بالكور هنا هو النفض، أي القذائف التي رمت بها القوات الفرنسية بلاد فجيج.
15. كلمة "بومبا" هي تعريب للكلمة الفرنسية Bombe،أي القنبلة
16. امشاتشو هم الأطفال الصغار الذين هرعوا رفقة أمهاتهم للقصور العلوية لطلب الاستغاثة واللجوء عند دويهم.
17. هذه الكلمات كانت تغنيها امرأة من أولاد جرير، تدعى فاطمة بنت العربي، وهناك من روى أنها تدعى فاطمة بنت جلول، وأنها كانت تتقدم مجاهدي أولاد جرير عندما هبوا لمساعدة أهل زناكة، وكانت تسقيهم الماء وتردد هذه الأنشودة لحثهم على القتال.

غلن ساد منعن واعتقدوا أنهم فائزون
يزل أكدسن فحاربوهم
الد يرن اكجرضل أنسن حتى ولوا واندحروا

من نظم الملقب مو[18] كوش

النص رقم 6

يا جوادي سير[19] بي
نروحوا للمجاهدين
خرجوا زناكة يا لشام
على الرومي داروا عوام
نهل يربح هد الخطرة
جلتني لبلاد بعيدة
ماحضرت هد الغمرة
نعاونو المجاهدين
شوف زياخ القرنية
واش داروا للمجاهدين
شوف زياخ أولاد جرير
حزموا دارو سوق متين
بز أمولاي اسماعيل
رحمو رب العالمين
وين بلا أحمد جيران
وين محمد بن رمضان
وين سلام جدي الغزال
يا ربي أرحمهم أجمعين[20]

من نظم باشير أشيخ

---

18. "مو" هو تصغير لاسم محمد.
19. فعل سير يعني أسرع، عجل.
20. يروى أن الأسماء المذكورة في هذا النص هي أسماء المجاهدين الذين استشهدوا في القتال الثاني. كما يحكى أيضا أن هذا النشيد كانت تردده نساء قصر زناكة أثناء إشتغالهن بالنسيج.

النص رقم 7

الله امصلي عليك يا رسول الله
جاه النبي عظيم
الجنة للصابرين
النار للقوم الكافرين
الله انعل البخيل[21]

مشاركة الأولياء في المعارك

جل المبحوثين، سواء الرجال أم النساء، يعتقدون أن الأولياء شاركوا بالفعل في معارك عام النفض، وغالبا ما يستدلون على واقعية ذلك بالقول بأن بعض الجزائريين الذين شاركوا في الحرب، التقوا بعمال فجيجيين بإحدى الأوراش بالجزائر، وطلبوا منهم إن كانت فجيج لازالت تحميها تلك الفرسان البيضاء، تلميحا للأولياء، الذين كانوا يرمونهم بالحصى والتراب[22].

الرواية رقم 1

"روت لي أمي، رحمها الله، وخالتي، رحمهما الله، أنه في عام النفض، كان النصارى يقذفوننا من جنان الدار، من مكان يسمى " أمشان نمشان (موضع الآلات). أما المجاهدون الفجيجيون فكانوا يرابطون في الصور الذي لا زال واقفا ب"الديوانة". وكان هناك جمع من النخيل يدعى "أيل نلالة هلية". كانت تخرج منه امرأة تحمل قناعا أحمر، على رأسها قرنين مصبوغين بالحنة، وفي يدها سرة عجيبة، كانت تنتقل إلى جنان الدار، حيث توجد مدافع القوات الفرنسية، وتقذف النصارى بالسرة التي تمسكها في يدها، وكان الكل يتحول إلى غبار أبيض، يمنع النصارى من رؤية أهدافهم وتصويب مدافعهم.
بعدها، يأتي دور "رجال البلاد"، الذين كانوا يخرجون ممتطين فرسانا خضراء، يقومون بمحاربة الأعداء إلى أن يقطعوا آخر رأس من رؤوسهم، ثم

21. أي البخيل عن الجهاد أو البخيل عن المساعدة أو المشاركة في الأعمال الجماعية.
22. مهما كان الأمر، فإن مكانة الأولياء في المجتمع الفجيجي لازالت متميزة، ويكفي أن أشير هنا أن حجاج قصر زناكة، عند استعدادهم لمغادرة الواحة لقضاء مناسك الحج، يحجون أولا إلى ضريح سيدي فضل ويرددون فيه الكلمات التالية: "وقفنا ببابك يا مولى الموالي وارحمنا بفضلك على كل حالي
كما أنهم، عند عودتهم وقبل الدخول إلى بيوتهم يتوقفون بضريح سيدي فضل لأداء الصلاة (ركعتين)، ثم مسجد سيدي فضل للصلاة (ركعتين) وأخيرا، المسجد الكبير (ركعتين).

يختفون، ويظهر فريق ثاني من "رجال البلاد"، ممتطين فرسانا بيضاء، فيشرعون بدورهم في محاربة النصارى إلى أن يهلكوهم جميعا. أما النصارى فكلما أرادوا قصف فجيج، إلا وفشلوا في إصابة أهدافهم.
ثم كانت تظهر من جديد لالة هلية، ماسكة سرتها العجيبة بيدها، فتقذف بها الأعداء حتى يتحول الكل إلى ضباب كثيف يمنعهم من الرؤية. ويخرج بعدها "رجال البلاد" راكبين فرسانا حمراء، ويهرعون لضرب الأعداء إلى أن يأتوا عن آخر رؤوسهم، ثم يختفون لتظهر مرة أخرى فرسان بيضاء، وهكذا دواليك إلى أن انهزم النصارى ورفعوا العلم الأبيض".

الرواية رقم 2

"يحكى أن طفلا صغيرا، من أبناء قصر الحمام التحتاني، كان فوق سطح دارهم لما رأى مشهدا غريبا بناحية "تاغيت". فنادى أمه : أما! أماه! أماه! ... فحضرت أمه إلى السطح مهرولة، ومتسائلة. فأشار لها طفلها بيده إلى ناحية تاغيت. فشاهدت الأولياء، يخرجون من باطن الأرض، ممتطين فرسانا بيضاء، لا سلاح لهم إلا التراب الذي كانوا يرمون به الأعداء".

الرواية رقم 3

"روى لنا الملقب داد سلام ألالي، رحمه الله، أن امرأة مسنة، وبهلولة، كانت تسكن بمدينة فاس. وذات يوم، غابت هذه المرأة عن أنظار ذويها. فبحثوا عنها لمدة ثلاثة أيام. بحثوا عنها في كل مكان، بحثوا عنها حتى في نهر ملوية. لكنهم لم يعثروا لها عن اثر. وفي أحد الأيام التقى بها رجل، وهي تهرول في سيرها، وشعرها مخبل ومنتفخ، فسألها : "أين كنت يا عائشة"؟ فأجابته : "لقد كنت في الجهاد"، وقال لها : "أي جهاد"؟ فأجابته :"الجهاد ضد النصارى"، ثم سألها : "ومن انتصر"؟ فأجابت :"نحن"، فقال لها :"أين جرى هذا؟ فردت عليه "الخناك، الخناك"، فاستفسر ها :" أي خناك؟ فأجابت "تاغيت، خناك تاغيت".

نوادر
النادرة رقم 1

"يروى أن مقاتلين من بني داريت عندما قتلا جنديا فرنسيا، بدت لهما سلسلة من الذهب حول عنقه، فهرعوا نحو جثته الهامدة لإنتزاع تلك السلسلة. غير أنهم أصيبوا برصاص أودى بحياتهم.
ولما شاع الخبر في وسط المقاتلين، اتفقوا أن تسحب منهم صفة مجاهد، وأن لا يدفنوا في مقبرة المجاهدين، لأنهما غرهما متاع الحياة أثناء الجهاد"[23]

النادرة رقم 2

"كان المدعو حمو أمحمد، أحد كبار وأغنياء قصر زناكة، حاضرا من بين ممثلي جماعات القصور الذين تفاوضوا مع الفرنسيين في نهاية الحرب. ويحكى أنه لما رأى زعيم الفرنسيين يخطب عليهم مهددا، قال لمترجمه[24] قل للشاف ديالك الى ما عجبك الحال، حيدوا الهبيلة[25] وأخرجوا هنا نتكادوا"

الرواية رقم 3

" يحكى أن دود فنزار قشو[26] قال لأمه وهو يودعها، إن لم أعد فأنا ذاهب للجهاد. وبينما هو في طريقه، التقى بامرأتين يهوديتين، على ظهرهن الكثير من الحرير، وكميات من الذهب. فسألهن "أين أنتن ذاهبات؟" ، فأجابتا "الغابة"،

---

23. هذه الرواية تعبر عن تصور الفجيجيين لمفهوم الجهاد.
24. المترجم العسكري الفرنسي هو هاميت HAMET ، أما زعيمه فهو الجنرال O'CONOR ، مدبر ومنفذ عملية قصف فجيج في 8 يونيو 1903
25. الهبيلة هنا هي المدفعيات التي استعملها الفرنسيون في القصف، وهي مدفعيات تحمل قطع من عيار 75 وأخرى من عيار 95. هذه المدفعيات نعتت بالهبيلة نظرا للخسائر الفادحة التي نتجت عن استعمالها. ويبدو لي أن نداء هذا الرجل لترك "الهبيلة" هو نداء لإحترام قاعدة التكافؤ والتساوي في العتاد والسلاح بين الطرفين أثناء الحرب، وأنه في غياب تطبيق هذه القاعدة، يصبح النصر باطلا. كما أنه ليس من شيم الشجعان والأبطال استعمال "الهبيلة" ضد العزل، وضد المدنيين. نحن اذن أمام مقولة تحول نصر الفرنسيين إلى هزيمة، وتعيد النظر في قيم الشجاعة والبطولة وفي قواعد الحرب.
26. المدعو دود قيشو هو أحمد فنزار، من أبرز الأبطال الذين شاركوا في معارك عام النفض. ويظهر في الروايات بأنه هو الذي أطلق الشرارة الأولى ضد موكب الحاكم العام جونار لما وصل بجيوشه إلى فج تاغيت. وقد توفي هذا المجاهد رحمه الله في بداية الاستقلال.

"الغابة، يا سيدي"، فعرضن عليه أن يأخذ ما ابتغى من الحرير والذهب. غير أنه أجابهن مصرا " لا، لا سيداتي، فأنا ذاهب للمعركة لأجاهد".

صدر هذا المقال في :
مقاومة المد الاستعماري بمنطقة فجيج : قصف فجيج سنة 1903 نموذجا، ندوة علمية، فجيج 17 و18 غشت 1903، الرباط : منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومة وأعضاء جيش التحرير.